سُورَةُ الأَعْرَافِ

سُورَةُ الأَعْرَافِ

❁ تعريفٌ عامٌّ بسورةِ الأعراف:

سورةُ الأعرافِ: مَكيّةٌ[1]، وعددُ آياتِها مئتانِ وستُّ آياتٍ في المدنيّ والمكّيّ والكوفيّ، وخمسُ آيات في البصريّ والشَّاميّ[2]، وقد وردَ ذكرُ بعض آياتٍ منها بأنَّها مدنيَّةٌ على اختلافٍ في عددها في قولَيْن[3]: الأوَّلُ: هي خمسُ آياتٍ من قولِه تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: 163 - 167]، الثَّاني: هي ثماني آياتٍ من قولِه تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿*وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ [الأعراف: 163 - 171]. والحقيقةُ أنَّه لا يوجد دليلٌ قويٌّ ثابتٌ، يجزِم بمدنيَّتها، فتبقى السُّورة الكريمة مكِّيَّةً بجميع آياتها.

زمن نزولِ سورةِ الأعرافِ:

نزلتْ في السَّنةِ العاشرةِ من البعثةِ النَّبويَّة في المُدَّةِ الزَّمنيَّةِ الواقعةِ بين الهجرةِ إلى الحبشةِ وحادثةِ الإسراءِ والمعراج[4]. وقد قيل: "نزلت سورةُ الأعرافِ بعد (سورةِ ص)، وقبل (سورةِ الجنِّ)، وكان نزولُ (سورة الجنِّ) مع رجوعِ النَّبيِّ ﷺ من الطَّائف، وكان قد سافرَ إليها سنةَ عشْر من بعثتِه، ليعرض الإسلامَ على أهلها"[5].

وقال المحقِّقون: وظاهرُ حديثِ ابن عباس في (صحيح البخاري) أنَّ سورةَ الجنِّ، أُنزلت في أوَّلِ الإسلام، ولعلَّ ذلك في السَّنة الثَّانيةِ من البعثة، ولا أحسبُ أن تكونَ سورةُ الأعرافِ، قد نزلت في تلك المدَّةِ؛ لأنَّ السُّورَ الطِّوال، يظهر أنَّها لم تنزل في أوَّل البعثةِ[6].

أسماءُ سورةِ الأعرافِ وسببُ تسميتها:

الأوَّلُ: سورةُ الأعراف، وقد ورد ذِكْرُ الأعرافِ في قولِه تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ

(1) قاله ابن عبّاس ﷺ وقتادة، ينظر: النَّحاس، النَّاسخ والمنسوخ: 2/358، والسُّيوطي، الدُّرُّ المنثور: 3/125، والإتقان: 1/49.
(2) الدَّاني، البيان في عدِّ آيات القرآن، ص: 155.
(3) ابن سلامة، النَّاسخ والمنسوخ، ص: 70، والزَّركشي، البرهان: 1/200، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/149.
(4) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيَّة: 3/95.
(5) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيَّة: 3/95.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/07.

﴿ٱلْأَعْرَافِ﴾ [الأعراف: 48]، وهي سورٌ بين الجنَّة والنَّار. والثَّاني: سورةُ الميقات؛ لاشْتمالِها على ذِكْرِ ميقاتِ موسى ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 143]. والثَّالث: سورةُ الميثاقِ؛ لاشْتمالِها على حديثِ الميثاقِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172]، وأَشْهرُها الأعراف[1]. وما ذكرهُ بعضُهم من تسميَتِها بالحروفِ المقطَّعة الَّتي في أوَّلها ﴿الٓمٓصٓ﴾، على نحو ما فعلَ ابنُ أبي زيدٍ في الرِّسالة[2]، فقد ذكرَ ابنُ عاشورٍ أنَّه ضعيفٌ، وذكر أيضًا أنَّ "ما في حديثِ زيدٍ، من أنَّها تُدعى طُولى الطُّولَيَيْنِ، فعلى إرادةِ الوصفِ دون التَّلقيب"[3]، فهي بذلك ليست اسمًا.

ترتيبُ سورة الأعراف بين السُّوَرِ:

ترتيبُ نزولِها هو التَّاسعُ والثَّلاثون، من ترتيبِ نزول السُّوَر، عند جابرِ بن زيدٍ، عن ابن عبّاسٍ [4]ﷺ، وترتيبُها بين السُّوَرِ الَّتي بُدِئَتْ بحروفِ الهجاءِ من حيثُ النُّزولُ الرَّابعة، وترتيبُها بين السُّوَرِ الطِّوالِ من حيثُ النُّزولُ الأولى، وترتيبُها المصحفيُّ بين السُّوَرِ في القرآنِ الكريمِ السَّابعة[5]، وهذا هو التَّرتيبُ الثَّابتُ المعوَّل عليه.

المحورُ الأساسيُّ لسورة الأعراف:

المحور الرئيس الّذي دارت عَلَيْهِ آيات سورة الأعراف هو بيان أثر الاتّباع الحاسم للوحي الإلهيّ في تحقيق الإصلاح للبشريّة ودفع الفساد عنها بَدْءًا من دعوة أبينا آدم ﷺ وانتهاءً بدعوة نبيّنا محمّد ﷺ.

الاتِّباعُ الحاسم للوَحْيِ فيه تحقيقُ صلاحِ البشريَّة

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 1/203 - 204.

(2) قال النَّفراويُّ: "أُولاهَا سَجْدَةٌ (في المص) الْأَعْرَافِ (عِنْدَ قَوْلِهِ) تَعَالَىٰ: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ۝﴾ [الأعراف: 206] وَهُوَ آخِرُهَا"، يُنظر: شهاب الدّين النّفراويّ، الفواكه الدّواني على رسالة ابن أبي زيد القيروانيّ: 1/250.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/6.

(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 1/98.

(5) جعفر شرف الدِّين، الموسوعة القرآنيَّة: 3/85 - 87.

وقد ظهر هذا المحور فيها جليًّا واضحًا منذ مطلعها في قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: 1 - 3]، وفي آخر آياتها: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٢٠٤ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف: 203 - 206].

وظهر هذا المحور بشكلٍ غير مباشر في كلّ مشاهد قصص هذه السّورة: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف: 12]، وفي قوله له ناعيًا له ولمن تبعه تعالى: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝١٨﴾ [الأعراف: 18].

تكذيبُ دعواتِ الأنبياءِ هَلاكٌ وبَوارٌ

وبيَّنَتِ السّورةُ الكريمة مصارعَ الأقوام الّذين كذّبوا دعوات أنبيائهم وذلك بسبب أنّهم لم يتّبعوهم، وعَرَضَتْ لأسباب جحودهم وعلى رأسها اتّباعُ وساوس الشّيطان، بدلًا من هدي الرّحمن.

الاستِكْبارُ قَنْطَرةُ الإعـــراضِ عـنِ الهُدى

وسلّطت السّورة الكريمة الضّوء على سببٍ آخر من أسباب ترك الاتّباع وهو الاستكبار، بَدْءًا من أوّل المستكبرين: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣﴾ [الأعراف: 13]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٦﴾ [الأعراف: 36]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: 40]، وغيرها من الآيات. فهذه السّورة من أكثر السُّوَرِ الّتي ذكرت لفظةَ الاستكبار ومقارباتها.

وذكَّرَتِ السّورة كذلك بالعهد الأوّل المأخوذ على بني آدم والمطلوب اتّباعه والعمل به: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: 172 - 173].

اتـبـاعُ هَـذْيِ الأنبياءِ مَعْقودٌ بالعَهْدِ المأْخوذِ على آدمَ

وتخلّل السّورةَ الكريمةَ الأمرُ للنّاس جميعًا بضرورة اتّباع النّبيّ ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: 158]، وأثنت السّورة الكريمة على المبالغين في التّمسّك بالكتاب في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: 170]، فضلًا عن تصويرها حال من ترك الاتّباع لآيات الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: 175 - 176].

قَصَصُ الأنبياءِ مَلْمَحٌ شامِخٌ بِضَرورةِ اتِّباعِ الرَّسولِ الخاتَمِ

وقد اقتضى هذا المحور الّذي قامت عليه السّورة من أن تُكْثِرَ من ذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم مُبَيِّنةً نماذجَ متنوّعةً من تَرْك الاتّباع على الصُّعُد: العَقَديّة والسّياسيّة والاقتصاديّة والأخلاقيّة وغيرها. واقتضت كذلك أن تُكثر من ذكر مفردة النّصح على ألسنة الأنبياء لأقوامهم بأن يتّبعوا شرعة الله حتّى تصلح حياتهم.

سببُ تسميَتِها:

سُمِّيتْ سورةُ الأعرافِ بهذا الاسم، الّذي ورد ذِكْرُه في قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: 46]، ويُقصد به

المكانُ المرتفعُ الَّذي يجلسُ فيه مَنْ تساوتْ حسناتُه وسيِّئاتُه، على سورٍ حاجزٍ مضروبٍ بين الجنَّةِ والنَّار، يَبقَوْنَ فيه حتَّى يقضيَ اللّٰهُ في أمرهم، ولم يرد ذكر اسم (الأعراف) فيما سِواها من السُّوَر[1].

ثمّ إنّ اسم السّورة مرتبط بمحور السّورة ومقصودِها الّذي قامت عليه، وعند إنعام النّظر في مقاطع هذه السّورة وموضوعاتها الجزئيّة يتبيّن أنّ المحور الرئيس الّذي يجمع مقاطعها وآياتها يدور حول أثر الاتّباع الحاسم للوحي الإلهيّ في تحقيق الإصلاح ودَرْءِ الفساد؛ فالسّورة قد نصّت على هذا الاتّباع الحاسم في الآيات الأولى منها بقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: 2 - 3].

أمثلة على تسلسل ورود مقاطع السورة لتتواءم مع المحور:

لذا فإنّ السّورة الكريمة قد ارْتَبَطَتْ بعضُ مفاصِلِها ومشاهِدِها بهذا المحور الرئيس، فمثلًا عندما ذكرت جانبًا من قصّة آدم ﷺ، قد سلّطت الضّوء على قضيّة رفضِ إبليسَ اتّباعَ الأمر له بالسّجود بقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف: 12]! فكان الأصل أن يتّبع إبليسُ أمرَ ربِّه دون مواربةٍ أو تعليلٍ مَبْنيٍّ على قياسٍ فاسدٍ.

وكذلك فإنَّ مشاهدَ قصّة آدم في السّورة الكريمة قد ألمحت إلى معصية آدم ﷺ والّتي تاب الله تعالى فيها عليه بأنْ عَلَّمَه الكلمات الّتي تُيَسِّر عليه أمرَ التّوبة، إذ إنّ الأصل في نهي الله تعالى له ولِزَوْجِه عن أن يَقْرَبا الشّجرةَ ويأكلا منها، أن يتمَّ بحسم وطاعةٍ لا يعتريها ضعفٌ أو نسيانٌ، لكنّ الأمر كان على غير ذلك، فجاءتِ التّوجيهاتُ لذرِّيَّتِه من بعده في نداءات أربعة أوردتها السّورة الكريمة؛ في الآيات:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 26 - 27]. وقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ [الأعراف: 31]. وقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/5، والشّعراوي، التّفسير: 8/4556.

يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأعراف: 35].

ويُلْمَحُ من هذه النّداءات والتّوجيهات ضرورةُ اتّباعِ أوامرِ اللّه تعالى ونواهيه، دون تردّدٍ لاستماع وسوسة الشّيطان حتّى يتحقّق الصّلاح في الأرض، وهذا هو المحور الّذي تدور حوله السّورة.

وفي قصّة موسى عليه السلام ورحلته الطّويلة مع بني إسرائيل يظهر لنا أثرُ هذا الحسم في اتّباع أوامر نبيِّهم، فالسَّحَرةُ لمّا حَسَموا أمرَهم وعزموا عليه بعد أن رأوا الآياتِ البَيِّناتِ على صدق موسى عليه السلام، ردّوا على فرعونه وعيدَه الشّديد لهم: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: 123 - 126].

لكنّهم لمّا خَبَتْ جذوةُ عزيمتِهم في اتّباع موسى عليه السلام بعد ذلك؛ فعلوا الأعاجيبَ الكثيرةَ الّتي صوَّرَتْها السُّورةُ الكريمةُ، فما أنْ قطعوا اليَمَّ سالمين وأرجلُهم لم تَجِفَّ بعدُ من أثرِ الماء؛ حتّى أصابهمُ الوَهَنُ وقلّةُ العزيمة: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: 138]. وكان الأصل فيهم أن يستمرّوا على هذا الاتّباع بحزم وقوّة وإصرار بدلًا من أن يطالبوا نبيَّهم بالمعجزات تلوَ المعجزات، والمعضِلات تلوَ المعضلات، حتّى كتب اللّه عليهم التّيهَ، فلم يَصِلوا بُغيتَهم ولم يحقّقوا خلافتَهم في حياة موسى عليه السلام.

وضَرَبتْ لنا السّورة كذلك مثلًا من غير الحاسمين في اتّباع وحيِ اللّه من خلال قصّة أصحاب القرية الّتي انقسم أهلها إلى ثَلاثِ فِرَقٍ إزاءَ فتنةِ الصّيد في يوم النّهي، فقال عنهم: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِۘ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: 163 - 165].

فالعصاةُ قد حَسَموا أمرَهم بمعصيتِهم، والآمرون بالمعروف النّاهون عن المنكر قد حَسَموا أمرهم، وباشروا دعوة قومهم، لكنّ الفريق الثّالث القائلين لإخوانهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ لم يَحْسِموا أمرَهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فاستحقّوا أن يكونوا مع الهالكين عند من يرى ذلك من المفسّرين، أو على أقلّ تقدير أن يكونوا من المسكوتِ عن جزائهم؛ لأنّ الآيات بيّنت جزاءَ كلٍّ من الحاسمين أمرهم وسكتت عن غيرهم.

ثمّ ساقت لنا السّورة الكريمة أنموذجًا آخرَ لغير الحاسمينَ أمرَهم في الاتّباع؛ من خلال قصّة المنسلخ عن آيات الله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: 175 - 176]. فقد أشعرتْ لفظةُ الانسلاخِ بتركِ الاتّباع شيئًا فشيئًا، والتّردّد بين الرّفع أو الإخلاد، حتّى استحقَّ أن ينال صاحبه هذا التّشبيه وهذا الجزاء.

وكذلك كان الحال في أصحاب الأعراف الّذين لم يحزموا أمرهم، ولم يرجّحوا كفّتهم فوقفوا على سورٍ مشرفٍ بين أصحاب الجنّة وبين أصحاب النّار حتّى أنعم الله عليهم برحمته، ولكنّ ذلك كان بعد تطلّعاتٍ وحواراتٍ مع كلا الفريقيْن حولهم، فجاءت تسميةُ السّورة باسمهم تحمل في عنوانها الدّعوةَ إلى الاتّباع الحازم الحاسم لدعوة الخير، دون التحيّر والتّردّد بين حاليْن وجاذبيْن. ونلمح قلّة الحسم في شَخْصِيَّتِهم من خلال حواراتهم مع أصحاب الجنّة وأصحاب النّار: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: 46 - 49]، فقد كانوا يطمعون في الجنّة ومع ذلك لم يدخلوها، ويعيِّرون أهلَ النّار بأنّهم كانوا يُقسِمون بأنّ الله لن يرحم المؤمنين، ومع ذلك ما استطاعوا دخول الجنّة دخول السّابقين.

لذا فإنّ تسمية السّورة باسم أهل الأعراف تحمل في طيّاتها رسالة موجّهة إلى النَّاسِ كافّة بضرورة المسارعة والعزم في اتّباع وحيِ السّماء دون تلكُّؤٍ أو تردُّدٍ.

فضلُ سورةِ الأعرافِ:

سورةُ الأعرافِ من السَّبْعِ الطُّوَلِ باتِّفاقٍ، وفي الحديثِ: «أُعْطيتُ السَّبعَ الطُّوَلَ مكان التَّوراة»، وهذا جزءٌ من حديث[1]، وقد رُوي عن ابن عبَّاسٍ أنَّه قال: السَّبْعُ المثاني: البقرةُ، وآلُ عمران، والنِّساءُ، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، وكذلك قال سعيد بن جُبَيْرٍ ومُجاهد[2]، هذا عن موقعِها في الطُّوَلِ. وقد ثبتَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقرأُ بها في المغرب يُفرِّقُها في الرَّكعتَيْن[3].

سببُ نزولِ سورة الأعراف:

ليس لسورةِ الأعرافِ سببُ نزولٍ من حيثُ الجملةُ، وليس لكلِّ سورةٍ أو آيةٍ سببُ نزولٍ، بل هو نزولٌ ابتداءً، ولكن يُوجَدُ سببُ نزولٍ لعديدٍ من آياتِ هذهِ السُّورِ، كما في قولِه تعالى: ﴿*يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الآية: 31]. فقدْ صَحَّ عن ابنِ عبّاسٍ ﷺ، أنَّ النِّساءَ كُنَّ يَطُفْنَ عَارِيَاتٍ إلَّا أنْ تجعلَ المرأةُ على فَرْجِها خِرقةً، وتقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أوْ كُلُّهُ *** وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

فَنزَلت: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[4].

وسيأتي ذكرُ أسبابِ هذه الآيات في مواضِعها من السُّورة.

تناسبُ سورةِ الأعرافِ مع أخواتِها طوال السُّوَر:

تعدُّ سورةُ البقرةِ أكْثرَ السُّوَر ذكرًا لأصولِ الإسلامِ والعقيدةِ، بما في ذلكَ من توحيدٍ وبعثٍ والحديثِ عن أهلِ الكتابِ والمشركين والمنافقين، وقد جاءتْ طِوالُ السُّوَرِ مُتمِّمةً لما فيها، فالسُّوَرُ الثَّلاثُ بعدَها، وهي آلُ عمران، والنِّساء، والمائدة، فصَّلَتْ في الحديثِ عن

(1) هذا الحديث نصُّه: «أعطيت السّبع الطّول، مكان التّوراة، وأعطيت المئين، مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني، مكان الزّبور، وفضّلت بالمفصّل»، وقد رواه أبو عبيد بسنده إلى واثلة بن الأسقع، عن النّبيّ ﷺ، انظر: أبو عبيد، فضائل القرآن، باب فضائل السّبع الطّول، ص: 157، وينظر: ابن جرير، جامع البيان: 1/44، والدّارميّ، سنن الدّارمي: 2/453.

(2) السّخاويّ، جمال القرّاء: 1/126.

(3) النَّسائي، السُّنن، برقم: (990)، عن عائشة ﷺ، وصحّحه الألبانّي.

(4) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (3028).

أهلِ الكتاب، ثمَّ فصَّلتْ سورةُ الأنعامِ في الحديثِ عن المشركين، وجاءتْ بعدَ ذلك سورةُ الأعراف مُتمِّمةً لذلك، فذكرتْ سُنَنَ اللهِ مع الأنبياءِ والمرسَلينَ وأقوامِهم، من أهلِ الكتاب والمشركين جميعًا[1].

مناسبةُ صَدْرِ السُّورة لخاتمةِ السُّورةِ الَّتي قبلَها (الأنعام):

لَمَّا ذكرَ ﷺ في آخرِ السُّورة الَّتي قبلَها أنَّه أنزلَ إليهم كتابًا مباركًا، وأمرَ باتِّباعه، وعلَّلَ إنزالَه وذكرَ ما اسْتتبعه ذلكَ ممَّا لا بدَّ منه في منهاجِ البلاغةِ ومَيْدانِ البراعة، وكانَ من جُملتِه أنَّ أمرَ المدعوِّين به ليس إلَّا إليه، إن شاءَ هداهم، وإنْ شاءَ أضلَّهم، واسْتمرَّ فيها، لا بدَّ منه في تتميم ذلكَ إلى أنْ ختمَ السُّورةَ بما انْعطفَ على ما افتُتحتْ به، فاشتدَّ اعتناقُه له حتَّى صارَ كشيءٍ واحد، أخذَ يستدلُّ على ما ختمَ به تلكَ من سرعةِ العقابِ وعُموم البرِّ والثَّواب وما تقدَّمَه، مُخبرًا عن مبتدأٍ تقديرُه: هو ﴿كِتَٰبٌ﴾، أي: عظيم، أوضحَ الطَّريقَ المستقيمَ فلم يَدَعْ بها لَبْسًا، ولم يَذَرْ خيرًا إلَّا أمرَ به، ولا شرًّا إلَّا نهى عنه، فإنزالُه من عظيم رحمتِه، ثمَّ وصفَه بما أكَّدَ ما أشارَ إليه من رحمته بقوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[2].

مناسبةُ السُّورة لِما بعدَها (الأنفال):

جاءَ في آخرِ الأعرافِ قصَّةُ موسى ﷺ، المُختَتمَةُ بقصَّة الَّذي انسلخ من آيات الله، وأنَّ ما بعدَ ذلك، إنَّما هو تَتِمَّاتٌ لما تقدَّمَ، لا بُدَّ منها، وتَتِمَّاتٌ للتَّتِمَّات، حتَّى كانَ آخرُ ذلكَ مدحًا من أهلِهم، لعندِيَّتِه سُبحانَه بالإذْعانِ وتمامِ الخُضوع، فلمَّا أُضيفُوا إلى تلكَ الحَضْرةِ العالية، اقتضَى ذلك سؤالًا عن حالِ الَّذين عندَ المخاطَب ﷺ، فأُجيبَ بقولِه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، أي: الَّذين عند ربِّكَ هُمُ الَّذينَ هَزَموا الكفَّار في الحقيقة، كما علمتُم ذلك، فهمُ المُستحِقُّونَ للأنفال، وليس لهم إليها الْتفاتٌ، وإنَّما هَمُّهمُ العبادة، والَّذين عندَك إنَّما جعلتَهم آلةً ظاهرة، ومع ذلك يسألونَ ﴿عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الَّتي تولَّيتهم إيَّاها بأيدي جنودي، سؤالَ منازعٍ ينبغي الاسْتعاذةُ بالله منه، كما نبَّه عليه آخرُ الأعراف؛ لأنَّ ذلكَ يُفضي إلى افتراقِ الكلمةِ والضَّعفِ عن مقاومةِ الأعداء[3]. وقد يكون في مجيء

(1) فهد الرّومي، اتِّجاهات التَّفسير في القرن الرَّابع عشر، ص: 719.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/347 - 348.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/216 - 217.

هذه السُّورة وما حملتْهُ من معاني نصرةِ اللّه تعالى لعباده المؤمنين، وما تحقَّق فيها من نُصرة المؤمنين في بدر، وهم قلَّة بعد سورة الأعراف الَّتي ذكرت المعاناةَ الطَّويلة لرحلة الأنبياء ﷺ مع أقوامهم، واستعجالهم العَذَابَ لَهُمْ، ما يجعل لُحمة قويَّة بين السُّورتيْن في مجيء النَّصرِ بعد الصَّبرِ والعناء.

موضوعاتُ السُّورة:

تناولتْ سورةُ الأعرافِ مواضيعَ عديدةً، من أهمِّها ما يلي[1]:

أوّلاً: تثبيتُ رسولِ اللّه ﷺ ومؤازرتُه والتَّسليةُ عنه لما واجَهه من تكذيبِ الكافرين له.

ثانيًا: الحديثُ عن توحيدِ اللّهِ تعالى والبعث، وعرضُ الأدلَّةِ الَّتي تثبتُ ذلك.

ثالثًا: الحديثُ عن خَلْقِ الإنسان، وذكرُ قصَّةِ آدمَ ﷺ ونزولِه إلى الأرض.

رابعًا: الحديثُ عن الميثاقِ الَّذي أخذَه اللّهُ تعالى على عبادِه في قولِه تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172].

خامسًا: التَّعريفُ بمعجزةِ القرآنِ الكريم، وأنَّه نعمةُ اللّهِ الباقيةُ إلى يومِ الدِّين، والأمرُ باتِّباعِ ما جاءَ به من أوامرَ ونواهٍ.

سادسًا: بيانُ أصحابِ الأعراف وقصَّةِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشُعَيْبٍ ﷺ، وهلاكِ أقوامِهم، وتفصيلِ أحوالِ موسى ﷺ مع فرعونَ وقومه، وذكرِ النَّبيِّ الأمِّيِّ العربيِّ ﷺ.

مقاصدُ السُّورة:

من أهمِّ المقاصدِ الَّتي تضمَّنَتْها سورةُ الأعراف[2]:

1. بيانُ أنَّ اللّه ﷻ أنزلَ القرآنَ لإنذارِ الخلْقِ وتذكيرِهم، فهو كتابُ حقٍّ، ويصدَعُ بالحقِّ، وإزهاقِ ما هو فاسدٌ من العقائدِ والشَّرائعِ الباطلة، ومعارضٌ للنُّظُمِ الظَّالمةِ المنحرفةِ عن صراطِ اللّهِ المستقيم.
2. تسليَةُ الرَّسول ﷺ في تكذيبِ الكُفَّارِ إيَّاه.
3. إنذارُ مَنْ أعرضَ عمَّا دعا إليه الكتابُ في السُّوَرِ الماضية.

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 1/204.

(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/204 - 205، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/347 - 348.

4. توجيهُ القلوبِ والألبابِ إلى توحيدِ اللّه تعالى، والتزامِ دينِه وشريعتِه، ونَبْذِ عبادةِ غيرِه، وإبانةُ صفاتِه ﷻ، وشؤون ربوبيَّتِه.

5. قرَّرتِ السُّورةُ أنَّه ﷻ خالقُ الأرضِ وما فيها، وخالقُ النَّاسِ جميعًا، مكَّن لهم في الأرض، بأنْ جعلَها دارًا لهم، وأودَعَ فيها ما يناسبُهم في أقواتِهم ومعاشِهم، وإقامتهم فيها.

6. بيَّنتِ السُّورةُ أصولَ التَّشريعِ الكليَّة، وبعضَ قواعدِ الشَّريعةِ العامَّة، فقرَّرَتِ ابتداءً أنَّ شارعَ الدِّين الإسلاميِّ هو اللّهُ ﷻ، وعظَّمتْ شأنَ النَّظرِ العقليِّ والتَّفكُّرِ في إبداعِ اللّهِ وحكمتِه، ليتعرَّفَ الإنسانُ آياتِ اللّهِ وسُنَنَهُ في كونِه وخلقِه، وليتبيَّنَ له الحقُّ.

7. الأمرُ بأخذِ الزِّينةِ عند بيوتِ اللّه، والأكلِ والشُّربِ من الحلالِ الطَّيِّب، والإنْكارُ على من حرَّمَ زينَةَ اللّهِ الَّتي أخرجَ لعبادِه والطَّيباتِ من الرِّزق، وحرَّمتْ مقابلَ ذلكَ الفواحشَ، ما ظهرَ منها وما بطَنَ، والإثمَ والبَغيَ بغيرِ الحقِّ، والشِّركَ والقولَ على اللّهِ بِغَيْرِ علمٍ.

8. الأمرُ بالتَّقوى والعملُ بها، لتحصيلِ بركاتِ السَّماءِ والأرضِ وخيراتهما بفضلِ اللّه ورحمته.

9. إيضاحُ سُنَنِ اللّهِ في الأُممِ السَّابقةِ، فَمَنْ غَلبَ بظلمِه وتسلُّطِه على عبادِ اللّه، أخذَه اللّهُ، ونصرَ أهلَ الحقِّ عليه، وفي ذلك عبرةٌ لمن بعدَهم من الأُمم.

10. أَبانَتْ أصولَ الفضائلِ الأدبيَّةِ والتَّشريعيَّة، ودَعَتْ إلى التَّخلُّقِ بالسَّماحةِ واليُسْر، والإعراضِ عنِ الجاهلين والاحتفالِ بهم.

11. وجَّهتِ المؤمنينَ إلى أدبِ الاسْتماعِ للقرآنِ الكريم، وذكرِ اللّهِ ﷻ، وعدمِ الغَفْلةِ عنه.

أساليبُ السُّورةِ:

ممَّا تقدَّمَ من بيانِ موضوعاتِ سورةِ الأعرافِ ومقاصدِها، يتَّضحُ أنَّها تهتمُّ بعرضِ الحقائقِ السَّابقةِ في أساليبَ عديدةٍ، منها:

أوّلاً: أسلوبُ الخبرِ في بيانِ عقيدةِ التَّوحيد وصفاتِه ﷻ، وأصولِ التَّشريعِ وقواعدِه.

ثانيًا: أسلوبُ الإنشاءِ، وذلك بالأمرِ بالنَّظرِ والتَّفكُّرِ في خَلْقِ اللّهِ، وعظيمِ صُنعِه وحكمتِه، وكذلكَ الأمرُ بأخذِ الزِّينةِ عند بيوتِ اللّهِ، والأكلِ والشُّربِ مِنَ الطَّيِّباتِ من الرِّزقِ

الرَّبَّاني، والأمرُ بالتَّقوى والتَّخلُّقِ بخُلُق السَّماحة واليُسر، والأمرُ بالإنصات والتَّأدُّبِ، في الاسْتماعِ للقرآنِ الكريم، ومن الإنشاءِ النَّهيُ عن الفواحشِ، ما ظَهرَ منها وما بَطَنَ، والإثمِ والبغيِ بغير الحقِّ.

ثالثًا: أسلوبُ التَّذكيرِ بنعمِ اللهِ على عباده الَّتي سخَّرها لهم، لتحقيقِ مصالِحهم ومعايشهم، وهم يتقلَّبون بها في جميعِ أحوالهم.

رابعًا: أسلوبُ التَّخويفِ من عذابِ اللهِ وانتقامه، كما في قَصصِ الأنبياء مع أقوامهم، وما آلَ إليه أمرُ المكذِّبينَ، المعاندين للحقِّ من إهلاكِهم، واسْتئصالِ شَأفتِهم، وإنْجاءِ الأنبياءِ والمؤمنينَ بهم.

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ [الأعراف: 1 - 2]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الـــرَّبـــطُ بين الصِّراعِ المحتومِ مـــع الـكـفـرِ، ومعجزةِ الكتابِ المُنْذِرِ المُذَكِّرِ

العلاقةُ بين مَدْلولِ آخرِ آيةٍ في سورةِ الأنعام، وهي قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، وما جاء من مدلولِ مَطْلَعِ سورَةِ الأعراف، مُكرَّسةٌ لتأكيد الاستخلافِ في الأرض، وما يتْبعهُ من رفعِ بعضٍ على بعضٍ، وابتلاءٍ فيما آتى اللّهُ النَّاسَ من نِعَمٍ شتَّى، معقِّبًا بقول مفاده: "إنَّ ربَّك سريعُ العقاب للمخالفين؛ لأنَّ عقابَهُ آتٍ لا ريبَ فيه، وكلُّ آتٍ قريب، وإنَّه لعظيمُ المغفرة لمخالفات التَّائبين المحسنين، واسعُ الرَّحمةِ بهم"[1]، فجاء في هاتين الآيتين بالحروفِ المقطَّعةِ المعجزةِ، منوِّهًا بالكتابِ المنزل لإنذارِ المكذِّبين، وتذكيرِ المؤمنين، ومنبِّهًا للرَّسولِ المبلِّغ، على ألَّا يكونَ في صدره حرجٌ عند البلاغِ، فالتَّكذيبُ معهودٌ مع كلِّ شريعةٍ جاء بها رسولٌ إلى قومه منذ آمادٍ بعيدةٍ. ويجعلُها بعضُهم حروفًا مأخوذةً من صفاتِ الله تعالى يجتمعُ بها في المفتَتَحِ صفاتٌ كثيرة، ويكون هذا فنًّا من فنونِ الاختصارِ عند العرب.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿الٓمٓصٓ﴾: ورد في تَفْسيرَاتِ هذه الأحرف معانٍ وتأويلاتٌ كثيرة جدًّا، "فمنهم من يجعلها أسماءً للسُّورِ، تُعرف كلُّ سورةٍ بما افتتحت به منها، فهي أعلامٌ تدلُّ على ما تدلُّ عليه الأسماءُ من أعيانِ الأشياء، ويجعلها بعضُهم للقَسَم، وكأنَّ اللّه ﷻ أقسم بالحروف المقطَّعةِ كلِّها، واقتصرَ على ذكرِ بعضِها من جميعِها. وذهبَ بعضُهم

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 203.

إلى أنَّ هذه الحروفَ جعلها اللّه تعالى حفظًا للقرآنِ من الزِّيادة والنُّقصان"[1]. وقد بيَّن الباقِلَّانيُّ أنّ نبوَّةَ محمَّدٍ ﷺ مبنيَّةٌ على دلالةِ معجزةِ القرآنِ، وقال: إنَّه ما من سورةٍ من السُّورِ المفتَتَحةِ بذكر الحروفِ المقطَّعةِ إلَّا وقد أُشْبِع فيها بيانُ ذلك، قال: "وكثيرٌ من هذه السُّورِ إذا تأمَّلتَهُ، فهو من أوَّلِهِ إلى آخره مبنيٌّ على لزوم حجَّةِ القرآنِ، والتَّنبيه على معجزتِهِ"[2]، ومن هنا، فالَّذي عليه جمهورُ المحقِّقين أنَّها جاءت للتَّحدِّي والإعجازِ.

2) ﴿صَدْرِكَ﴾: الصَّدْرُ: الجَارِحَةُ: قالَ تعالى: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾ [طه: 25]، وجمعُه: صُدُورٌ، قالَ تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات: 10]. ثمَّ اسْتُعيرَ لمقدَّم الشَّيءِ كصَدْرِ القناة، وصَدْرِ المجلس، والكتاب، والكلام، وصَدْرُ كلِّ شيء: أوَّلُه[3]. قالَ بعضُ الحكماء: حيثُما ذَكرَ اللّهُ تعالى القلبَ فهو إشارةٌ إلى العقلِ والعلم، نحو: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]، وحيثما ذُكِرَ الصَّدْرُ فهو إشارةٌ إلى ذلك، وإلى سائرِ القُوى من الشَّهوةِ والهوَى والغضبِ ونحوِها، وقولُه: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾ [طه: 25]، فسؤالٌ لإصلاحِ قُواه[4]، والمرادُ بالصَّدْرِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ ظاهرُه، أي: الجارحةُ، وهذا الحَرَجُ سيُؤثِّرُ في الصَّدْرِ تأثيرًا سلبيًّا، فيصيبُه بضيقٍ وهمٍّ وغمٍّ.

3) ﴿حَرَجٌ﴾: أصلُ الحَرَجِ والحَراجِ: مجتمعُ الشَّيئَيْنِ، وتُصُوِّرَ منه ضيقُ ما بينهما، فقيلَ للضَّيِّق: حَرَج، وللإثْم حَرَج، قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ [النِّساء: 65]. وقد حَرِجَ صَدْرُه، قالَ تعالى: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: 125]، أي: ضيِّقًا بكفرِه؛ لأنَّ الكفرَ لا يكادُ تَسْكُنُ إليه النَّفسُ لكونِه اعتقادًا عن ظنٍّ[5]، وقولُه تعالى هنا: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ قيل: هو نهيٌ، وقيل: هو دُعاءٌ، وقيل: هو حكمٌ منه[6]، وقيل: ضِيقٌ[7]، وقيل: شكٌّ[8]، وقيل: هو إثمٌ[9]، والقولُ الأرجحُ المناسبُ للسِّياق، هو أنَّه بمعنَى الضِّيق.

(1) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 3/130.
(2) أبو بكر الباقلانّي، إعجاز القرآن، ص: 68.
(3) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (صدر).
(4) الرّاغب، المفردات: (صدر).
(5) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (حرج).
(6) الرّاغب، المفردات: (حرج).
(7) البغوي، معالم التّنزيل: 3/213، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/112.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 8/116، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/112.
(9) ابن عادل، اللُّباب: 6/470.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّنويهُ بعظمةِ القرآنِ في حروفِهِ وهدايتِهِ، وانشراحِ الصَّدرِ بِهِ

يقولُ اللهُ ﷻ لرسولِه ﷺ، مبيِّنًا له عظمةَ القرآن: هذا الكتابُ الَّذي أنزلتُه عليكَ - يا محمَّدُ ﷺ - كتابٌ جليلٌ، حوَى كلَّ ما يحتاجُ إليه العباد، وجميعَ المطالبِ الإلهيَّة، والمقاصدِ الشَّرعيَّةِ، محكَمًا مُفصَّلًا، فلا يكن في صدركَ ضيقٌ وشكٌّ واشْتباهٌ؛ بل لتعلم أنَّه أصدقُ كلامٍ، ولا يأتيه الباطلُ من بين يدَيْهِ ولا من خَلْفِه، فَلْينشرِحْ له صدرُك، ولْتطمئنَّ به نفسُكَ، ولْتصدعْ بأوامرِه ونواهيه، ولا تَخشَ لائمًا ومعارِضًا، وليكنْ ذلكَ كلُّه لِتُنذرَ به الخَلْق، وتَعظَهم، فتقومَ به الحُجَّةُ على المعاندين، ويكونَ ذكرى للمؤمنين تنفعُهم في عاجلِهم وآجلِهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الموقعُ النَّحْويُّ لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾ في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾:

اختلافُ وجوهِ الإعرابِ باختلافِ التَّقديرِ

قولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ فيه أربعةُ أَوْجه: الأوَّلُ: خبرٌ للمبتدأ ﴿الٓمٓصٓ﴾، فهذه الحروفُ في موضع مبتدأ، أي: المسمَّى بـ ﴿الٓمٓصٓ﴾ كتاب، فما يُجعَلُ عنوانًا للموضوع حقُّه أن يكون معلومَ الانتساب إليه عند المخاطب، وإذْ لا عهدَ بالتَّسمية قبلُ، فحقُّها الإخبارُ بها. والثَّاني: خبرُ مبتدأٍ محذوف، أي: المدْعوُّ به ﴿الٓمٓصٓ﴾. والثَّالثُ: خبرُ مبتدأٍ محذوف، أي: هذا أو هو[2]. والرَّابع: مبتدأٌ وخبرُه جُملةُ ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[3].

نُكتةُ الابْتداءِ بالنَّكرةِ ﴿كِتَٰبٌ﴾ عندَ من يعدُّه مبتدأ:

ابتُدِئ بالنَّكرة؛ لإرادة النَّوع، أو التَّعظيم، أو كونه محلًّا للوصف

وقعَ الابْتداءُ بالنَّكرة؛ إمَّا لأنَّها أُريدَ بها النَّوعُ لا الفرد، فلم يكنْ عليها في الحكمِ إبْهام، وذلكَ كقولهم: رَجُلٌ جاءني، أي: لا امرأة،

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 237.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/65، والعكبريّ، الإملاء: 1/267، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/317.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/11.

وتمرةٌ خيرٌ من جرادة، وإمَّا لأنَّ التَّنكير أُريدَ به التَّعظيمُ، وإمَّا لأنَّ ﴿كِتَٰبٌ﴾ يمكن أن يكونَ موصوفًا لـ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، فيكون مسوِّغًا عندئذٍ للابْتداءِ بالنَّكرة[1].

الأغراضُ البلاغيَّةُ لتنكيرِ لفظ ﴿كِتَٰبٌ﴾ بناءً على تعدُّد المعاني:

لتنكيرِ لفظ ﴿كِتَٰبٌ﴾ أغراضٌ بلاغيَّة فائقة، وهي:

سـرُّ تعـدُّد الأغـراض لاسـتيـفـاءِ (الـتَّـوعـيـة، والـتَّـعـظـيـم، والتَّعجيب)

أولًا: التَّنكيرُ للنَّوعيَّة، وهو ما أوحتْ به فائدةُ إرادة النَّوعِ الَّذي كانَ أحدَ أسبابِ الابْتداءِ بـ﴿كِتَٰبٌ﴾، مع كونِه نكرةً، ففي هذا الكتابِ ردٌّ على المشركين في إنكارِهم، أن يكونَ القرآنُ الكريمُ من عندِ الله، واسْتبعادِهم ذلك، فجاءَ التَّذكيرُ الإلهيُّ هنا للمشركين، بأنَّه كتابٌ من نوعِ الكتُبِ المنزَّلةِ على الأنبياء، فكما نزلتْ صُحُف إبراهيم، وكتابُ موسى، كذلك نزلَ هذا القرآن، فيكونُ تنكيرُ النَّوعيَّةِ لدفعِ الاسْتبعاد، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ [ص: 22].

ثانيًا: للتَّعظيم، كقولهم: (شرٌّ أَهَرَّ ذا نابٍ)، أي: شرٌّ عظيم، أي: هو كتابٌ عظيمٌ تنويهًا بشأنه، فصارَ التَّنكيرُ في معنى التَّوصيف.

ثالثًا: التَّعجيبُ، أي: من شأنِ هذا الكتابِ في جميعِ ما حُفَّ به من البلاغةِ والفصاحةِ، والإعجازِ والإرشاد، وكونه نازلًا على رجلٍ أُمِّيٍّ[2].

دلالةُ الموقعِ النَّحويِّ لقولِه تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾:

جملةُ (أُنـزِلَ) صفـةٌ أو خبرٌ لـ(كتاب)

قولُه تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ صفةٌ لذلكَ الخبر، وهو ﴿كِتَٰبٌ﴾، أي: السُّورةُ المُسمَّاةُ بقولنا: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾. ويجوزُ أن يكونَ هو الخبر[3]، ولئن قلتَ: "بِمَ رفعتَ الكتابَ في هَؤُلاءِ الأحرف؟

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/10 - 11.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/11.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/194، والعكبريّ، الإملاء: 1/267.

قلت: رفعتُهُ بِحروف الهجاء الَّتي قبلَهُ، كأنَّكَ قلت: الألفُ واللَّامُ والميم والصَّاد من حروف المقطع، كتابٌ أنزل إليك مجموعًا"[1].

فوائدُ الخبرِ في قولهِ تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾:

غـرضُ الـخـبرِ: تقريعُ المنكِرينَ والـكـافـريـن، وتـسـكـينُ روع سيِّد المرسلين

إنَّ فوائدَ هذا الخبرِ عديدةٌ؛ أوَّلًا: أن يكونَ المقصودُ من الإخبارِ بقولِه: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ تذكيرَ المنكِرين والمكابرين؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ والمؤمنينَ، يعلمونَ أنَّه أُنزلَ من عند الله، فلا يحتاجونَ إلى الإخبارِ به، فالخبرُ مُستعملٌ في التَّعريضِ بتغليظِ المشركين والمكابرينَ والقاصدينَ إغاظةَ الرَّسولِ ﷺ بالإعراض. وثانيًا: أن يكونَ المقصودُ من الخبرِ الامْتنانَ والتَّذكيرَ بالنِّعمةِ، فيكونُ الخبرُ مُستعمَلًا في الامْتنانِ. وثالثًا: أن يُجعَلَ الخبرُ ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ مع ما انْضمَّ إليه من التَّفريعِ والتَّعليلِ، لفائدةِ تسكينِ نفسِ النَّبيِّ ﷺ، أي: هو كتابٌ أُنزلَ إليكَ، فكنْ منشرحَ الصَّدر، فإنَّه أُنزلَ إليكَ لِتُنذِرَ به الكافرين، وتُذكِّرَ المؤمنين. ورابعًا: إغاظةُ الكافرين، وتأنيسُ المؤمنينَ، أي: هو كتابٌ أُنزلَ لفائدة، وقد حصلتِ الفائدةُ، فلا يكنْ في صدرِكَ حَرَجٌ إن كذَّبوا.

وبهذه الفوائدِ واعتباراتِها الجليلةِ مع عدمِ منافاةِ بعضِها بَعْضًا، يُحملُ الكلامُ على إرادةِ جميعِها، وذلكَ من مطالعِ السُّوَرِ العجيبةِ البيان[2].

نكتةُ خطاب النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿كِتَبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾:

رفْعُ شَأْنِ النَّبيِّ ﷺ، والاهْتمامُ بـه مـن مقاصد البيانِ القرآنيِّ البليغِ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَيْكَ﴾ بضميرِ المخاطَبِ، تسكينٌ لنَفْسِ النَّبيِّ ﷺ، ورفعٌ لشأنِه واهتمامٌ بالغٌ بمقامِه الشَّريف ﷺ، وفيه إغاظةٌ للكافرين الَّذين كذَّبوه، وتأنيسٌ للمؤمنين الَّذين آمنوا به ونصروه[3]،

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/368.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/12.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/12.

"قَالَ الفرَّاء: تَقْدِيرهُ: (هَذَا كتابٌ أنزل إِلَيْك، فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِك حَرَجٌ مِنْهُ)، أَي: شكٌّ، وَالْخطاب للرَّسول، وَالْأمَّة هم المُرَاد"[1].

بلاغةُ المجازِ المرسَلِ المركَّبِ:

إفـادةُ معنَى الامْتنان

ذلك أنَّ المقصودَ من الخبر في قوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، الامْتنانُ والتَّذكيرُ بالنِّعمة[2]، أي: نعمةِ إنزالِ الكتاب على النَّبيِّ ﷺ، على طريقةِ المجازِ المرسَلِ المركَّب[3]، "الدَّليل الَّذي دلَّ على صحَّة نبوَّة محمَّد ﷺ، هو أنَّ الله تعالى خصَّه بإنزالِ هذا القرآنِ عليه، وصريحُ العقل يشهد، بأنَّ هذا لا يكونُ إلَّا بطريقِ الوحي من عندِ الله تعالى، فثبت بهذا الدَّليلِ العقليِّ أنَّ ﴿الٓمٓصٓ﴾ كتابٌ أُنزِلَ على محمَّدٍ ﷺ، من عند ربِّه وإلهه"[4].

نكتةُ بناءِ الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

غرضُ هذا البناءِ الاخْتصارُ، والجَريُ على سَنَنِ الله المُنَزَّل في الإخبارِ

بُنِي الفعلُ للمفعولِ في قولِه تعالى: ﴿أُنزِلَ﴾ جَرْيًا على سَنَن الكبرياء، وإيذانًا بالاسْتغناءِ عن التَّصريحِ بالفاعلِ، لغايةِ تَعَيُّنِه، وهو السِّرُّ في تركِ مبدأِ الإنزالِ، كما في قوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: 67][5]. ويمكنُ أن يكونَ هذا البناءُ من بابِ الاخْتصار، للعلمِ بفاعلِ الإنزال؛ لأنَّ الَّذي يُنزِلُ الكتُبَ على الرُّسُلِ هو اللهُ تعالى، ولما في مادَّةِ الإنزالِ من الإشعارِ بأنَّه من الوحيِ لملائكةِ العوالمِ السَّماويَّة[6].

(1) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/163.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/11.

(3) المجاز المرسل المركَّب، هو مجازٌ لغويٌّ، وهو اللَّفظُ المركَّبُ المستعملُ في غير المعنَى الَّذي وُضع له، وعلاقته غير المشابهة، وسُمّي مُرسَلًا؛ لأنَّ الإرسالَ هو الإطلاق، أي: ليس له علاقة معيَّنة - كما هو الشَّأن في الاستعارة - مع قرينة مانعة من إرادة المعنَى الأصليّ، كما في الجُمل الخبريَّة المستعملة في الإنشاء، لأغراض لم يُوضع لها الخبر، كإظهار التَّحسُّر، أو الضَّعف، أو السُّرور، أو الامتنان، ومثالُ الأخير ما ورد في الآية ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ كما ذُكر في المتن، وغير ذلك من الأغراض، ينظر: حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 3/309، 313، وفضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 283، 295.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/195.

(5) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/317.

(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/12.

معنَى الفاءِ في قولِه: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾:

أفـادتِ الـفـاءُ الاعـتـراضَ في سـيـاق الآيـةِ الكريمةِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ﴾ اعْتراضيَّةٌ، إذِ الجملةُ معترِضةٌ بين فعلِ ﴿أُنزِلَ﴾ ومُتَعَلِّقِه وهو ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾، فإنَّ الاعتراضَ يكونُ مقترنًا بالفاءِ، كما يكونُ مقترنًا بالواو، كما في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ٥٧﴾ [ص: 57] وقولِه: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ [النِّساء: 135]، وليس المرادُ بأنَّ الفاءَ زائدةٌ للاعْتراض، ولكنَّها ترجعُ إلى معنَى التَّسبُّب، وإنَّما الاعْتراضُ حصلَ بتقديم جُملتِها بين شيئَيْن مُتَّصلَيْن مُبادَرةً من المتكلِّم بإفادتِه لأهمِّيَّته. وأصلُ ترتيبِ الكلامِ هنا: كتابٌ أُنزِلَ إليكَ لِتُنذِرَ به وذكرى للمؤمنينَ، فلا يكنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ منه، والمعنَى: أنَّ اللهَ أنزلَه إليكَ لا ليكونَ في صدرِكَ حرجٌ بل لينشرحَ صدرُك به[1].

أفـادتِ الـفـاءُ تضمينَ معنَى الـشَّـرطِ في السِّياق المسوقِ في الآية

من ناحية أخرى، أفادَ قولُه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ﴾ احْتواءَ السِّياق لمعنَى الشَّرط، كأنَّ الأصلَ أن يُقال: كتابٌ أُنزِلَ إليكَ، فإن كنتَ في حرجٍ ممَّا أنزلنا إليك، فلا يكنْ في صَدرِك ذلكَ الحرج، وهنا جاءتِ الفاءُ على هذا التَّقدير، متضمِّنةً معنى الشَّرط، لتقويَةِ نفيِ الحرجِ أيِّ حرجٍ يمكنُ أنْ يُراودَ صدرَ النَّبيِّ ﷺ.

دَلالةُ النَّهي بالحرفِ (لا):

دلَّ الـسِّـيـاقُ بـحـرفِ الـنَّـهـي على النَّهي عن الحرجِ أوالنَّهي عن الشَّكِّ

قولُه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ﴾، نهيٌ متوجِّهٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، أي: نهيُه عن المبالاةِ بالمكذِّبين بالقرآن، والغمِّ من صنيعهم، وكذلكَ نهيٌ له ﷺ من الحَرج في تبليغِ القرآن خشيةَ تكذيبِهم له وإعراضِهم عنه وأذاهم[2].

ويمكنُ أن يكونَ المرادُ نهيَ النَّبيِّ ﷺ في أن يكونَ في صدرِه شكٌّ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/13.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66، والشَّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/285 - 286.

في كونِ هذا القرآن حقًّا، كقولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾ [البقرة: 147]، وعلى هذا القولِ، فالخطابُ للنَّبيِّ ﷺ، والمرادُ نهيُ غيرِه عن الشَّكِّ في القرآن، حيث لا يمكنُ أنْ يكونَ في صدرِه ﷺ أيُّ شكٍّ في كون القرآن حقًّا[1].

ويمكن أن تكونَ صيغةُ نَهي الحرجِ، عن أنْ يحصُلَ في صدرِ النَّبيِّ ﷺ، ليكونَ النَّهيُ نَهْيَ تكوين، بمعنَى: تكوينِ النَّفي، عكس أمرِ التَّكوين الَّذي هو بمعنَى تكوينِ الإثبات، مُثِّلَ تكوينُ نفيِ الحرجِ عن صَدْرِه بحالةِ العاقلِ المدرِكِ للخطابِ عن الحصولِ في المكان[2].

والأظهرُ أن يكونَ المرادُ بالحرجِ في الآيةِ الضِّيق، وأنْ يكونَ النَّهيُ واردًا أنْ يكونَ في صدرِه ﷺ أيُّ ضيقٍ عن تبليغِ ما أُمِرَ به، لشدَّةِ تكذيبِهم له، والتَّعرُّضِ لبطشِهم ممَّا يضيقُ به الصَّدْر، ويَدُلُّ علَى هَذَا الوجهِ في الآيةِ، قولُه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ [هود: 12].

ويُؤيِّدُه كذلك أنَّ الحرجَ في لغةِ العرب: الضِّيقُ، وذلكَ معروفٌ في كلامِهم، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحجّ: 78] أي: ضيق[3].

نكتةُ إسنادِ النَّهيِ إلى النَّبيِّ الكريم:

المبالغةُ في تنزيهِ النُّبوَّةِ الخاتمةِ عن أيِّ حرجٍ مهما كانتِ العَقَبات

عبَّرَ بيانُ اللهِ تعالى عمَّا يُمكنُ أنْ يُلازمَ صدرَه الشَّريفَ ﷺ من الحَرَجِ الَّذي يُسبِّبُ له ضيقَ الصَّدْر، وفي مقابلِه ما يمكنُ أنْ يَعتريَ المتيقِّنَ من انشراحِ الصَّدْرِ وانْفساحِه، وذلكَ مبالغةٌ في تنزيهِ ساحتِه ﷺ، وما قد يقعُ من نسبتِه إليه ضمن النَّهي، فعلَى طريقةِ التَّهيُّجِ والإلْهابِ، والمبالغةِ في التَّنفيرِ والتَّحذيرِ، بإيْهَامِ أنَّ ذلكَ من

(1) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/285.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/13.
(3) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/286.

القُبحِ والشَّرِّيَّة، بحيث يُنْهَى عنه، مَنْ لا يمكنُ صدورُه عنه أصلًا، فكيف بمن يمكنُ ذلكَ منه[1]؟

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ في ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ﴾:

غـرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ التَّخصيصُ والاهتمامُ بالمرادِ

في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾، تقدَّمَ الجارُّ والمجرور (شِبه الجملة)، على ﴿حَرَجٌ﴾، والأصلُ أن يُقال: (فلا يكن حرجٌ في صَدرِك)، وهذا التَّقديمُ لما حقُّه التَّأخير، فيه تخصيصُ الصَّدْرِ، بكونه محلًّا للحرَج، وتخصيصُ صدرِ النَّبيِّ دون غيرِه بالحرج؛ لأنَّه هو الَّذي ينزلُ عليه الكتابُ وحيًا من اللَّه تعالى، وفيه كذلك تقديمٌ للخبر على اسْم يكن ﴿حَرَجٌ﴾، ليكونَ أقوى في الدَّلالةِ على المراد، وهو ألَّا يكونَ صَدْرُ رسولِ اللَّه ﷺ محلًّا لأيِّ ضيقٍ يتسلَّلُ إليه[2].

بلاغةُ المجازِ أو الكنايةِ في قولِه ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾:

الـصَّـدْرُ محلٌّ لـلـضِّـيـقِ أوِ الانـشـراحِ على سبيلِ المجازِ لا الحقيقةِ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿فِي صَدْرِكَ﴾ مُرتبطًا بالحَرَج، وجُعِلَ الصَّدرُ مَحَلًّا له على سبيل المجاز، إذْ ليس الصَّدرُ وعاءً حقيقةً لذلكَ الحرجِ، الَّذي هو مجازٌ كذلك، وإنَّما الصَّدر وعاءٌ للقلب الَّذي يحمل الحرج، فأطلق الصَّدرَ، وأراد القلبَ السَّاكنَ فيه على سبيلِ المجاز المرسَل، والخطابُ توجَّه بالنَّهي عن أنْ يكونَ في صدرِ رسولِ اللَّهِ أيُّ حَرَجٍ، والتَّقديرُ: (فلا يكن في صَدْرِكَ حَرَجٌ منه، من جهةِ ما جرَّهُ نزولُه إليكَ من تكذيبِ قومِكَ وإنكارِهم نزولَه، فلا يكنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ منه، من عِظَمِ أمرِه وجَلالتِه، ولايكنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ منه، فإنَّه سببُ شَرْحِ صدرِك بمعانيه وبلاغته)[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾:

تعبيرُ الاستعارةِ عن تصويرِ حالةِ الـنَّـفْـسِ حين الحُزْنِ والأسَف

حقيقةُ الحَرَج أنَّه المكانُ الضَّيِّقُ من الغاباتِ الكثيرةِ الأشجار، بحيثُ يَعسُرُ السُّلوكُ فيه، ويُستعارُ لحالةِ النَّفْسِ عند الحُزْنِ

(1) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/217 - 218.
(2) فضل عبَّاس، أساليب البيان: ص: 107 - 108.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/13.

والغَضَبِ والأَسَف؛ لأنَّهم تخيَّلُوا للغاضِبِ والآسفِ ضيقًا في صَدْرِه، لَمَّا وجدوه يَعسُرُ منه التَّنفُّسُ من انْقباضِ أعصابِ مجاري النَّفَس، وفي معنَى الآية قولُه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ﴾ [هود: 12][1].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿حَرَجٌ﴾:

غـرضُ التَّنكيرِ عمومُ الحَرَجِ، ويمكنُ أن يفيدَ التَّحقيرَ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿حَرَجٌ﴾ نكرةً، ليعمَّ أيَّ حَرَجٍ، وخاصَّةً أنَّه سُبِقَ بنفيٍ، وبصيغةِ النَّهي بقولِه: ﴿فَلَا يَكُن﴾، أي: فلا يكنْ في صَدْرِكَ - يا محمَّدُ ﷺ - أيُّ غمٍّ من صنيعِهم، أو حُزنٍ وهمٍّ بسببِ تكذيبِهم لدعوتِك[2]، ولَمَّا جاءَ سياقُ قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ - على معنَى أنَّ الحَرَجَ بمعنَى الشَّكِّ - من المبالغةِ في تنزيهِ ساحتِه ﷺ، وما قد يقعُ من نسبتِه إليه في ضمنِ النَّهي، مبالغةً في التَّنفيرِ والتَّحذيرِ، بإيهامِ أنَّ ذلك من القُبحِ، بحيث يُنهَى عنه من لا يمكنُ صدورُه منه أصلًا، فكيف بمن يمكنُ ذلك منه؟ فيمكن أن يكون التَّنوينُ هنا في لفظ ﴿حَرَجٌ﴾ للتَّحقيرِ الَّذي يُعبِّر عن ذاك التَّنفير والتَّحذير[3].

نكتةُ توجيهِ النَّهي إلى (الحَرَج) في الآيةِ الكريمة:

أثـرُ أسـلـوبِ المبالغةِ في النَّهي بطريقِ الكنايةِ

جعلَ بيانُ اللهِ النَّهيَ مُتوجِّهًا إلى الحَرَجِ للمبالغةِ في التَّكليف، باقْتلاعِه من أصلِه على طريقةِ قولِ العرب: (لا أَرَيَنَّكَ هَاهُنَا)، أي: لا تَحضُرْ فأَرَك، نهيًا بطريقِ الكناية[4]، وتوجيهُ النَّهي إلى الحَرَجِ، مع أنَّ المرادَ نهيُه ﷺ عنه لأمرَيْن وَجيهَيْن: الأوَّلُ: أنَّه لَمَّا مرَّ من المبالغةِ في تنزيهِه ﷺ عن الشَّكِّ فيما ذُكر، فإنَّ النَّهيَ عن الشَّيء، ممَّا يُوهمُ إمكانَ صدورِ المنهيِّ عنه عن المنهيِّ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/13 - 14.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/13.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/318.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66.

والثَّاني: للمبالغة في النَّهي، فإنَّ وقوعَ الشَّكِّ في صدرِه ﷺ سببٌ لاتِّصافه ﷺ به، والنَّهيُ عن السَّببِ نهيٌ عن المسَبَّبِ بالطَّريقِ البُرهانيِّ، ونفيٌ له من أصلِه بالمرَّة[1].

معنَى (مِن) في قولِهِ تعالى: ﴿حَرَجٌ مِّنْهُ﴾:

الأداة (مِـن)، متأرجحةٌ بين الابتدائيَّةِ أو السَّببيَّةِ

في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾، نجد أنَّ (مِنْ) ابتدائيَّةٌ، أي: حَرَجٌ ينشأُ ويَسْري من جَرَّاءِ المذكور، أي: من تكذيبِ المكذِّبينَ به، فلمَّا كانَ التَّكذيبُ به من جُملةِ شؤونه، وهو سببُ الحَرَج؛ صحَّ أنْ يُجعَل الحَرجُ مُسبَّبًا عن الكتابِ بواسطةٍ، والمعنَى على تقديرِ مضاف، أي: حرجٍ من إنكارِ إنزالِه من اللّه[2]. ويمكنُ أن تكونَ (مِنْ) سببيَّةً، أي: حَرَجٌ بسببِه، تقولُ: حَرِجتُ منه، أي: ضِقْتُ بسببِه[3].

تعلُّقُ الجارِّ في شبه الجملة: ﴿مِّنْهُ﴾، وصلةُ (الفاء) به:

تعـلُّـقُ الـجـارِّ بـ(حـرَج)، أو بمحذوفِ صفةٍ لـه، والـفـاءُ بالتعلُّقين

تقدَّم آنفًا أنَّ ﴿مِّنْهُ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿حَرَجٌ﴾، يُقال: حَرِجَ منه، أي: ضاقَ به صدرُه، ولكنْ يمكنُ أن يكونَ ﴿مِّنْهُ﴾، مُتعلِّقًا بمحذوفٍ وقعَ صفةً له، أي: حرَجٌ كائنٌ منه، أي: لا يكنْ فيكَ ما في أحقِّيَّته أو في كونِه كتابًا مُنزَّلًا إليكَ من عندِه تعالى، وبناءً على هذين التَّعلُّقَيْن، يكونُ (الفاء) معنًى يتناسبُ مع كلٍّ منهما: فالفاءُ على الأوَّلِ، لترتيبِ النَّهي، أوِ الانْتهاءِ على مضمونِ الجملة، فإنَّه يُوجِبُ انتفاءَ الشَّكِّ، فيما ذُكِرَ بالكُليَّةِ، وحصولَ اليقين به قطعًا. وأمَّا على الثَّاني: فالفاءُ لترتيبِ ما ذُكِرَ على الإخبارِ بذلكَ، لا على نفسِه[4].

معنَى حرف اللَّامِ في قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾:

اللَّامُ في ﴿لِتُنذِرَ﴾ فيها أربعةُ أوجهٍ: الأوَّلُ: أن تكونَ متعلِّقةً

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/318.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/13.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 5/241.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/318.

بـ﴿أُنزِلَ﴾، أي: أُنزِلَ إليكَ للإنذار، وهذا على التَّقديم والتَّأخير، على تقدير: (كتابٌ أُنزِلَ إليك لِتُنذِرَ به فلا يكنْ في صَدْرِكَ حرجٌ منه)، وعلى هذا تكونُ جملةُ النَّهي معترضةً بين العلَّةِ ومعلولِها[1].

الثَّاني: أن تكونَ اللَّامُ متعلِّقةً بما تعلَّق به خبرُ الكَوْنِ ﴿يَكُن﴾؛ إذ التَّقديرُ: فلا يكن حرجٌ مستقرًّا في صدرِكَ لأجل الإنذار[2]. والثَّالثُ: فلا يكنْ في صدرِكَ شيءٌ لتُنذِر[3]. والرَّابع: اللَّامُ لامُ التَّعليل، واقْتَرَنَ الفعلُ بها، دونَ الإتيانِ بمصدرٍ منصوب (إنذارًا) لاختلافِ فاعلِ العاملِ، وفاعلِ الإنذار[4].

اللَّامُ فيها أربعةُ أوجهٍ، تتنوَّعُ وتبين بحسبِ متعلَّقها

بلاغةُ حذفِ المتعلَّقِ في ﴿لِتُنذِرَ﴾ مِنَ الآية الكريمة:

حذَفَ بيانُ اللهِ تعالى متعلَّقَ ﴿لِتُنذِرَ﴾ لِظهورِ تقديرِ المحذوفِ من ذِكْرِ مُقابِله المذكور، والتَّقديرُ: لِتُنذِرَ به الكافرين[5]، من قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

غـرضُ الحـذف ظـهورُ تقديرِه، بذكرِ ما يقابلُه

بلاغةُ التَّصريحِ بمتعلَّقِ ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ دون مُتعلَّق ﴿لِتُنذِرَ﴾:

صُرِّحَ بمتعلَّقِ ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ دونَ مُتعلَّقِ ﴿لِتُنذِرَ﴾، تنويهًا بشأنِ المؤمنينَ ومكانتِهم عند مُنزِّلِ الكتاب، وهو اللهُ ﷻ، وتعريضًا بتحقيرِ الكافرين تجاهَ ذكرِ المؤمنين[6]، وتَخصيصُ التَّذكير بالمؤمنين؛ لأنَّهم الَّذين ينجعُ فيهم ذلك، وللإيذانِ باخْتصاصِ الإنذارِ بالكَفَرَة[7].

غـرضُ التَّصريحِ بتذكيرِ المؤمنينَ عُلُوَّ شأنِهم عندَ اللهِ تعالى

معنَى الباءِ والهاءِ في ﴿بِهِۦ﴾ من قولِه: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾:

قولُه تعالى: ﴿بِهِۦ﴾، عائدٌ إلى ﴿كِتَٰبٌ﴾، أي: الكتابُ المنزَّلُ وهو القرآنُ الكريم[8]، ويمكنُ أن يكونَ عائدًا على الإنزال، أي: أُنزِلَ

(الـهـاءُ) هي لـلـكـتـابِ أو لـلإنـزال، وكـلاهـمـا ذو دلالةٍ مفيدةٍ

(1) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/370، والزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66، والعكبريّ، الإملاء: 1/268.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/242.
(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/66.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/14.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/14.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/14.
(7) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/264.
(8) العكبري، الإملاء: 1/268، وأبو السُعود، إرشاد العقل السّليم: 2/318.

إليكَ لإنذارِك به، أو لِتُنذِرَ بهذا الإنزال، لمكانته بأنَّه منزَّلٌ من عندِ اللّه[1]، والباء للتَّعديَة، ويمكن أن تكونَ للمصاحبة.

نكتةُ تقديمِ الإنذارِ على التَّذكير:

يـردُ التَّقديمُ في السِّياقِ لِلَفْظٍ على لفظٍ لأهميَّة المقدَّم

قدَّمَ بيانُ اللّهِ تعالى الإنذارَ على التَّذكيرِ في قولِه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لأنَّه الغرضُ الأهمُّ بحسبِ المقام، وذلك لإبْطالِ ما عليه المشركونَ من الباطلِ، وما يُخلِّفونه في النَّاسِ من العوائدِ الباطلةِ الَّتي تُعانَى إزالتُها من النَّاسِ بعدَ إسلامِهم[2].

بلاغةُ العطفِ في قوله سبحانه ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

تـوارُدُ العطفِ يُجلِّي قوَّةَ السَّببِ في معاني السِّياق

جاءتْ ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ معطوفةً بالرَّفعِ من وجهَيْن: أحدهما: أنَّها عطفٌ على ﴿كِتَٰبٌ﴾، أي: كتابٌ وذكرى، أي: تذكير، فهي اسْمُ مصدرٍ. والثَّاني: أنَّها خبرُ مبتدأٍ مُضمَرٍ بفعلٍ، أي: هو ذكرى. ويمكنُ أنْ تكونَ معطوفةً بالنَّصبِ على المعنَى، وهي أن تكون في محلِّ نصبٍ نَسَقًا على موضع ﴿لِتُنذِرَ﴾، فإنَّ موضعَه نصبٌ، وهذا كما تُعطفُ الحالُ الصَّريحةُ على الحالِ المؤوَّلةِ كقولِه تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا﴾ [يونس: 12]، ويكونُ حينئذٍ مفعولًا من أجله، كما نقولُ: جئتكَ لِتكرَمني وإحسانًا إليَّ.

ويمكنُ أن تكونَ عطفًا في موقع الجرِّ من وجهين أيضًا: أحدهما: العطفُ على المصدرِ المنسَبِكِ من (أنْ) المقدَّرةِ بعد لام (كي) والفعل، والتَّقديرُ للإنذارِ والتَّذكير. والثَّاني: العطفُ على الضَّمير في ﴿بِهِۦ﴾، وهذا وجهٌ حَسَنٌ كونُ (ذكرى) في تقديرِ حرفٍ مصدريٍّ، وهو (أنْ) وفعل، ولو صُرِّح بـ(أن) لَحَسُنَ معها حذفُ حرفِ الجرِّ، فهو أحسنُ من قول: مَرَرْتُ بكَ وزيد، إذ التَّقدير: لأنْ تُنذرَ به وبأن تُذكِّر[3].

---

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/66.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/14.

(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/66، والعكبريّ، الإملاء: 1/268، والسّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/244 - 245.

وهذه الوجوهُ في عطفِ قولِه تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ أفادتِ السَّبكَ في ألفاظِ السِّياقِ ومعانيه، ما بين الظَّاهرِ منها والمُضْمَر، ما بين الكتابِ والإنذارِ والتَّذكير، فالكتابُ الكريمُ أُنزِلَ للإنذارِ والتَّذكير، الأوَّلُ للكافرين، والثَّاني للمؤمنين.

نكتةُ العُدولِ الصَّرْفِيِّ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه:

العُدولُ بين مكوِّنات العطفِ، يُراعى فيها اختلافُ المتعلَّق

جاءَ المعطوفُ عليه ﴿لِتُنذِرَ﴾ فعلًا، والمعطوفُ ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ مصدرًا، وذلك لأنَّ ﴿لِتُنذِرَ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿أُنزِلَ﴾ على المفعولِ لأجله، واقترانُه بلامِ التَّعليل، دونَ الإتْيان بمصدرٍ منصوبٍ، لاختلافِ فاعلِ العاملِ، وفاعلِ الإنذار، وإنَّما يتأتَّى التَّعليلُ بالإنذارِ، لا بتذكيرِ المؤمنين؛ إذْ ليس فيه شائبةُ خوفٍ حتَّى يُجعَلَ غايةً لانْتفائه. وجاءَ ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في حيِّزِ النَّصبِ، بإضمارِ فعلِه معطوفًا على تُنذر، أي: وتُذكِّرَ المؤمنين: تذكيرًا[1]، والتَّعبيرُ بالمصدر آكَدُ في الدِّلالة على مهمَّةِ القرآن الأساسيَّةِ في تذكيرِ المؤمنين.

معنَى اللَّام و(أل) في قوله تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

حروفُ المعاني يعمل بعضُها على تقويةِ المعنَى في عناصرِ التَّركيبِ

اللَّامُ للتَّعليلِ، أي: وذكرى لأجلِ المؤمنين، ويجوزُ أن تكونَ اللَّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مزيدةً في المفعولِ به تقويةً له؛ لأنَّ العاملَ فَرْعٌ، والتَّقديرُ: وتُذكِّرَ المؤمنين، ويمكنُ أنْ تتعلَّقَ بمحذوف؛ لأنَّه صفةٌ لِذكْرَى[2]، و(أل) استغراقيَّةٌ جنسيَّةٌ تشملُ المؤمنين كافَّةً.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الحَرَج) و(الضِّيق) و(الضَّرر) و(المشقَّة):

الحَرَجُ أشدُّ الضِّيق، وهو اللَّفظُ المناسبُ لسياقِ الآيةِ دونَ غيرِها

الحَرَجُ: ضيقٌ لا مَنْفذَ فيه، مأخوذٌ من الحَرِجةِ بكسرِ الرَّاءِ وفتحِها، وهي الشَّجرُ المُلْتَفُّ حتَّى لا يمكنَ الدُّخولُ فيه ولا الخُروجُ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/14.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/245.

منه، وحَرِجَ صدرُه، أي: ضاق، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحجّ: 78]، أرادَ ضيقًا لا مخرجَ منه، وذلك أنَّه يُتخلَّصُ من الذَّنْبِ بالتَّوبة، فالتَّوبةُ مخرجٌ[1]، والضِّيقُ ضدُّ السَّعة. ويُقالُ: الضَّيْقُ أيضًا، والضَّيْقَةُ، يُستعمَلُ في الفَقْرِ والبُخلِ والغَمِّ ونحوِ ذلك، قالَ تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ [الشُّعراء: 13]، وقالَ تعالى: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النَّحل: 127]، وكلُّ ذلك عبارةٌ عن الحُزْن، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ [الطَّلاق: 6]، ينطوي على تَضْييقِ النَّفقةِ وتَضْييقِ الصَّدْر[2].

والضُّرُّ: ضدُّ النَّفْع، وهو ما تَضُرُّ به صاحبَك وتنتفعُ به أنت، وقولُه: لا ضَرَرَ، أي: لا يَضُرُّ الرَّجُلُ أخاه، فيُنقِصُه شيئًا من حقِّه، والضِّرارُ: فِعالٌ من الضُّرِّ، أي: لا يُجازيه على إضرارِه، بإدخالِ الضَّررِ عليه. والضُّرُّ: فعلُ الواحد، والضِّرارُ: فعلُ الاثنَيْن، والضُّرُّ: ابتداءُ الفعل، والضِّرارُ: الجزاءُ عليه، والضِّرارُ: أنْ تضرَّه من غيرِ أنْ تنتفعَ به، وقيل: هما بمعنًى واحدٍ[3].

والشِّقُّ: المشَقَّةُ، والانْكسارُ الَّذي يلحقُ النَّفْسَ والبَدَن، وذلكَ كاسْتعارةِ الانْكسارِ لها، قالَ تعالى: ﴿لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النَّحل: 7]. والشُّقَّةُ: النَّاحيةُ الَّتي تَلحقُكَ المشقَّةُ في الوصول إليها، قالَ تعالى: ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ [التَّوبة: 42][4].

وكلمةُ (الحَرَج) الَّتي وردت في الآية الكريمة هي المناسبةُ لسياقِها دونَ غيرِها من الكلماتِ المقاربة لارْتباطها بالضِّيق الَّذي يحصُلُ في صدرِ النَّبيِّ ﷺ بتكذيبِ قومِه له ومعاندتِهم لدعوتِه، وهو ليس أيَّ ضيق؛ بل هو ضيقٌ لا مَنْفَذَ فيه لشدَّته.

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 182، والزّازي، مختارُ الصّحاح: (حرج).
(2) الرّاغب، المفردات: (ضيق)، والعسكريّ، الفروق، ص: 333.
(3) ابن الأثير، النِّهاية: (ضرر)، والعسكريّ، الفروق، ص: 328، والكفوي، الكلّيات: 3/147.
(4) الرّاغب، المفردات: (شق)، والرّازي، مختار الصّحاح: (شقق).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني عشر، سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 12 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-64-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 12 : سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-64-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1637585 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»